بسم الله الرحمن الرحيم

حضارة الإسلام

مجلة فكرية جامعة

جمادى الأولى	العدد الثالث	تموز وآب
١٣٨٩	السنة العاشرة	١٩٦٩

حين تعرف الأمة رجالها

على بركة الله نقدم هذا العدد الخاص عن حياة فقيد الاسلام والمعرفة الشيخ محمد الحامد رحمه الله .

وانما كان ذلك ـ وهو قليل مما يوجبه الوفاء ـ لما أن من الأمانة لهذه الأمة ـ وهي تعاني ما تعاني ـ أن نكون على معرفة بأولئك العاملين فيها ، الأمناءِ على عقيدتها ، الأوفياء لشرعتها ومبادئها .

فما أروع أن تعرف الأمة رجالها ، تقي بهم نفسها عوادي الزمن ، وتصلح على إثرهم ما تتعثر به من زلات وأخطاء ، لما يأخذون بيدها إلى ميادين الكرامة والأيد ، وما يحفظون عليها من أمر دينها الذي هو قاعدة البناء .

وأجدر بهذه المعرفة أن تساعد في وضع الأمور مواضعها ، من أجل تقويم المكان الطبيعي الذي يجب أن يأخذه كل واحد من أبنائها على طريقها

الشائكة الطويلة ، وفي ميادين العمل على تحقيق رسالتها في العالمين .

وليس شيء أضرّ على هـذه الأمـة في دينها ودنياهـا ، من أن يلبّس عليها أعداؤها ، أو العاقّون من ذويها ، فتعجـز عن تصوّر القيم التي على أساسها تبنى منزلة الرجال ، وفي ضوئها يحسب حسابهم من الطاعة والاتباع .

وفي بيان مشرق لأبعاد هذه الساحة التي نشير إليها بهـذه الكلمات ، أوحى الله إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام قوله جلّ وعزّ «وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» فكان تعليمه ما لم يعلم هو الفضل الذي لا يغفل عن عظيم قدره إلا غافل ، ولا يحـدّ سعة مدلولـه إلا جـاهل مسكين . أعلنها القرآن واضحة بعيدة عن التشبيه والتلبيس ، لتكون في مرتبة التكامل مع مظهر من مظاهر الرسالة «هو الذي بعث في الأميين رسولاً من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين» .

لقد وقفت وما بي من حاجة إلى تلمّس الحقيقة التي تكمن وراء هـذا الهدير الذي يقرع القلوب في حيـاة فقيدنا الكبير الشيخ محمـد الحامـد رحمه الله .

فالرجل الذي يهب نفسه للعلم والمعرفة ، ثم يجعل من سلوكه وعمله وجهاده بلسانه وقلمه صورة حيّة صادقة لما يعتقد ، هو رجل جدير بكل هذا الهدير الإيماني المعبّر ، حريّ بأن يكون مثلاً يحتذى ، وأسوة تتبع ، ولا نتألى على الله فالعصمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وليس من مكرور القول أن نذكر بأن أمتنا قد أعطت للفرد قيمة كبرى في ميدان النقل العلمي خصوصاً لما يكون من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا ومن أجل هذا الغرض كيما ينقل الحديث بالسند الصحيح كان علم الرجال ووجد علم الجرح والتعديل الذي يقوم على الوضوح والأمانة دون محاباة أو مصانعة في الحق .

والشيخ الحامد أجزل الله مثوبته واحد من أولئك العلماء العاملين الذين وضعهم التاريخ على قمة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث ، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل ، وموضع الحجـة في العمل ، وموضع القـدوة للعلماء زهداً في الدنيا ، وصدعاً بكلمة الحق ، والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم ـ والعلماءُ ورثة الأنبياء ـ كرامته التي هي من كرامة الأمة .

ولن يعوزك البحث لتجد في كل واحد من تصرفاته ما ينبغي أن يكون عليه العالم رغَباً ورهباً ، من تحقير لشأن كل منصب يمكن أن يعوقه عن أداء

رسالته في الحياة ، ولو كان هذا المنصب قد ألبس لَبوس الدين ، في وقت تشابهت فيه الأمور ، وساد في أرجائه الكثير من تمويه إبليس .

ولم يكن هيناً من الأمر أن يحمل الرجل نفسه في شؤون الدنيا على المركب الخشن ، فقد كان هذا دليل علو الهمة والانتصار على النفس الأمارة بالسوء ، لأن الزهادة في الدنيا أمر - بمفرده - سلاح يقاتل ، ونور يضيىء سبيل العالم إلى قوة التأثير والقدرة على فتح مغاليق القلوب .

والشيخ محمد الحامد - على تعدد جوانب شخصيته التي ترى فيها الجِدّ الجادّ ، والتحقيق العلمي ، والغضب لله عز وجل ، مع النكتة البارعة ، وموهبة الشعر التي لو تسنى لها أن تأخذ طريقها الطبيعي لرأينا العجب العجاب .

استطاع في هذه الفترة التي عاشها أن يكون فيصلاً بين العالم يتخذ العلم صناعة تكسب الجاه والمال ومرضاة السلطان ، وبين العالم ، يجعل من علمه زلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة .

والرائع الرائع وراء ذلك كله ، ما كان من الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي في العصر الحديث ، ذلك الوعي الذي اتسمت به تحركاته - رحمه الله - منذ كان طالباً في الأزهر سنيّ شبابه الأولى .

فلقد شهد بقلبه وعقله المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية ، وكان على إدراك تام لما يجب أن تكون عليه الطريق التي ينبغي أن تسلك لتحمل أعباء الدعوة ، في ظروف تستدعي الكثير من الإخلاص والمعرفة ، والنظرة الجماعية إلى الموضوع .

ذلك أن الدعوة الإسلامية في هذا العصر قد ورثت تركة مثقلة بالكثير من العناء ، نتيجة بعد المسلمين عن دينهم في منابعه الأصيلة الصافية ، ومجافاتهم للمنهج الإسلامي الصحيح في مجال الفكر والحياة .

والعدو - وقد أمسك بزمام الحضارة المادية - يبتدع في محاربة الإسلام كل يوم سلاحاً جديداً ، ويبني مؤامرة جديدة ، وكثيراً ما يحاول الإتيان على البناء من الداخل ، على أيدي من ينتسبون إلى الإسلام ويتسمَّون بأسماء بني جلدتنا وقومنا في ساحة من البهتان والزور .

كل هذا - وغيره كثير - أوجب العمل على تكوين قاعدة صلبة أمينة يقترن فيها الإيمان بالإعداد الصادق وحمل مسؤولية الجهاد ، بحيث يكون الإسلام مع الفرد والجماعة التزاماً في كل خطوة وفي كل حركة ، على إيجابية تباعد عن القاء الحبل على الغارب ، وعن الاستغناء بالهدم عن البناء ، ثم

الإكتفاء بتجريح الآخرين عن إلزام النفس بما ألزمها به الإسلام .

ومن خلال القناعة بتكوين هذه القاعدة التي يكون في مقدورها ـ مستعينة بالله ـ أن تحمل الإسلام عقيدة لا تشوبها شائبة ، وفكراً نيراً لا ينغلق دون الإنتصار العلمي ، وجهاداً لا يقف دونه حب الذات وعبودية الشهوات .. أقول : من خلال القناعة بذلك وجدنا الفقيد رحمه الله يمارس العمل الإسلامي ويعيه وراء حدود الكتاب ومقررات الإمتحان في الأزهر ، حيث جمعه الإخلاص والوعي إلى أولئك الذين وهبوا أنفسهم لقضية الإسلام ، على أساس أنها القضية الأولى التي يجب أن يحيا لها الرجال . رافق ذلك قناعة أن الكفر كله ملة واحدة ، وأن الوثنية اليوم بشتى ألوانها ومظاهرها وعناوينها الخادعة وغير الخادعة تحاول جاهدة مجتمعة الكلمة موحَّدة الصف أن تجهز على الوعي الإسلامي ، مهما كلفها الثمن ... أنّى وجد هذا الوعي أو لاحت بارقة تدل عليه .

وإذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم ليس كلمات يلهج بذكرها اللسان ، ويتفكه بها في المجالس ، ولكنه إخلاص وحسن تصوّر ، وحمل أعباء ، ومعرفة بالأرض التي قسم للداعية أن يغرس فيها بذور الخير ، وإحاطة بالواقع الذي تعيش الأمة في ظلاله ، وإدراك لما عليه العالم اليوم في أفكاره وعلمه وتطوره الحضاري ، إذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم كذلك ، فما أيسر أن تتحوَّل الدعوة إلى دويلات صغيرة هنا وهناك ، ولكن ما أعظم أن يكون الداعية على وعي وإخلاص يحملانه على الشمول في نظرته إلى الساحة التي يجب أن يكون عليها العمل في ظل دعوة لا تعرف الإقليمية والإنحسار .

وكذلك كانت نظرة الشيخ الحامد رحمه الله ، وكذلك كانت معالم توجيهه وإرشاده لمن ولاّه الله أمر توجيههم وإرشادهم ، فعبثاً تحاول أن تجد عند أولئك الشباب الذين سُعدوا بالانتفاع بعلمه وعمله نزعة انطواء عن الخط العام الذي يجب أن تلتقي عليه القلوب ، بل العكس هو الذي يكون دائماً ، صورة عن قناعات الشيخ رحمه الله ، فقد كان همه أن يُعدّهم علماً وإخلاصاً وسلوكاً من أجل أن يكونوا للأمة ، يسلكون لنصرتها الطريق الجماعية الواعية التي تتسم بالإحاطة والتكامل ، ويخرجون إلى الناس نماذج حركيّةً للشباب المسلم الذي يحمل من العقيدة ، صفاء الفكر وسلامة الإدراك لخصائص التصور الإسلامي ، وتتقد بين ضلوعهم روح العمل والجهاد .

رحم الله الشيخ الحامد فلقد كانت هذه الرائعة من خصاله أوضح ما تميزت به شخصيته عند لداته وأقرانه وأقوى ما استعلى به في ميدان الرجولة والوفاء في زمن قلّ فيه الرجال وعزّ للدعوة الإسلامية الوفاء .

وكل ما ذكرنا من خلاله رحمه الله كانت روافد لهذه الرائعة العظيمة ،

ذلك أن وعيه للعمل الإسلامي وما كان من إنعكاس ذلك على الأبعاد والمنطلقات في سلوكه وتصرفاته ، جعل لكل من تلك المزايا والخلال معنىً جديداً ، حتى بدت كل خصلة وكأنها رجل جديد يعمل للإسلام علماً وعملاً وجهاداً .

بل إن استقامة تصوره لطريق الدعوة كيف يجب أن يكون ، جعل من كل واحدة من تلك الخلال سلاحاً يقاتل في معركة الإسلام التي تتحرك على صعيد عالمي . فليس الأمر أمر ((محمد الحامد)) ولكنه أمر رائد من رواد القافلة المؤمنة التي تسربلت على مر الزمن نسيجا من النصال التي يتكسَّر بعضها على بعض وباتت كل يوم تقدم شهيداً يزيد في وضوح الرؤية وتحديد معالم الطريق .

وسيظلُّ أمر المعركة كذلك ما دام العدو وهو العدو وما دام الدين الذي يراد العمل لإعلاء كلمته هو مضمون قوله تعالى : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)) حتى يأذن الله بالنصر .

فما لم يكن ديناً يومذاك فليس - كما قال الإمام مالك - اليوم بدين . إلا أن يكون شيئاً مبتدعاً مخترعاً من عند بعض النفوس لا صلة له بالإسلام والعياذ بالله .

ألا إنه ليس كثيراً على الغايات الكبار ما تجود به النفوس الكبار وفي مرضاة الله تعالى تهون الصعاب .. ويستعذب الموت فقد أقعد الشيخ الحامد رحمه الله مرضه الذي كان نتيجة طبيعية للجهد المتواصل ، وما يرهقه من حمل أعباء أمته وما يؤرقه من همومها ولياليها السود . حتى قضى على حال نحتسب عند الله أن يكتب فيها من شهداء العلماء ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وبعد : فسيظل هذا الرجل حجة على كل أولئك الذين يرهبون حمل الراية ، ويجنحون إلى السلامة تحت وطأة تسويلات وتأويلات ، وعلى كل أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ويقدمون للأمة ركاماً من الزيف والإنحراف وسوء التأويل ، يسمونه ((سماحة الإسلام)) وينصرفون عن كلمة الحق باسم ((الحكمة)) والأمل في أن يجنوا من القتار شيئاً غير الشوك . ولله عاقبة الأمور . وما كان ربك نسياً .